الإسلام يسد المنافذ إلى الشرك

لقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص ، وحارب الشرك أكبره وأصغره ، وحذَّر منه أشد التحذير ، واتخذ لذلك وسائل شتى ، أبرزها سد كل المنافذ التي تهب منها ريح الشرك .

من هذه المنافذ ما يأتي :

● الغلو في تعظيم النبي ﷺ :

نهى النبي ﷺ عن الغلو في تعظيمه ومدحه فقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » . (متفق عليه).

والقرآن الكريم أثنى عليه ﷺ بالعبودية لله في أشرف المقامات ؛ تأكيدًا لهذا المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾(الكهف: ١). وقوله : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء: ١). وقوله : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (النجم: ١٠).

وكان صلوات الله عليه إذا رأى أو سمع ما يؤدي إلى الغلو في شخصه ، زجر من قال ذلك أو فعله ، ونبهه إلى الحق والسداد .

روى أبو داود بسند جيد عن عبد الله بن الشِّخِّير ﷺ قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا : أنت سيدنا . قال : « السيد : الله تبارك وتعالى » .

وعن أنس أن أناسًا قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : « يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان . . أنا محمد عبد الله ورسوله . وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل ». (رواه النسائي بسند جيد) .

ولما قال له رجل : ما شاء الله وشئت ، قال : « أجعلتني لله ندًّا؟ قل : ما شاء الله وحده » . (رواه النسائي).

● الغلو في الصالحين :

ومما نهى عنه الإسلام وحذَّر منه : الغلو في شأن الصالحين .

فقد غلا قوم في شأن المسيح حتى جعلوه ابنًا لله ، أو ثالث ثلاثة ، وقال بعضهم : إن الله هو المسيح ابن مريم .

وغلا قوم في أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أربابًا من دون الله ، من هنا حذَّر الله من غلو أهل الكتاب وشنَّع عليهم في ذلك فقال : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ (النساء: ١٧١)، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة: ٧٧).

وأول شرك وقع في الأرض ـ هو شرك قوم نوح ـ كان سببه الغلو في الصالحين . جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس في الحديث عن آلهتهم « ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر » قال : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا ، وسموها بأسمائهم . ففعلوا . . ولم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم ، عُبِدَت » .

وقال بعض السلف : لما ماتوا عَلَّقوا على قبورهم ، ثم صوَّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم .

ومن هنا نعلم أن غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم وولايتهم الله ، وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات ـ يؤدي إلى أنواع من الشرك ، كالنذر لهم والذبح لهم والاستعانة بهم ، والإقسام بهم على الله ونحو ذلك ، وقد يفضي بهم الغلو إلى الشرك الأكبر ، وهو اعتقاد أن لهم سلطة وتأثيراً في الوجود ، وراء الأسباب والسنن الكونية ، فيُدْعَون من دون الله أو مع الله،وهذا هو الإثم العظيم والضلال البعيد.

● تعظيم القبور :

ومما حذَّر منه الإسلام أشد التحذير : تعظيم القبور ، وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين ، ولذلك نهى عن جملة أشياء تفضي إلى تعظيم القبور منها :

١ – اتخاذها مساجد :

روى مسلم في « صحيحه » أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس : « ألا إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، أفلا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك » .

وعن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله ﷺ ـ أي في حالة الاحتضار ـ طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه . فإذا اغتم كشفها ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يُحَذِّر ما صنعوا . (متفق عليه) .

٢- الصلاة إليها :

ففي الحديث : « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها ». (رواه مسلم) . أي لا تجعلوا القبور في اتجاه القبلة .

٣- إضاءتها وإيقاد السرج عليها :

في الحديث : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » . (رواه أحمد والترمذي وغيرهما) .

٤- البناء عليها وتجصيصها :

روى مسلم عن جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر ، وأن يُقعد عليه ، وأن يُبنى عليه بناء .

٥- الكتابة عليها :

لحديث جابر : أنه ﷺ نهى أن تُجصص القبور ، وأن يُكتب عليها . (رواه أبو داود والترمذي) .

٦- تعليتها ورفعها :

لحديث علي : أن النبي ﷺ بعثه وأمره ألا يدع قبرًا مشرفًا إلا سوَّاه . (رواه مسلم) .

كما جاء في «سنن أبي داود» نهيه عليه الصلاة والسلام أن يزاد عليها غير ترابها من الأحجار والآجُرِّ ونحوها . ولهذا كان السلف يكرهون الآجر على قبورهم .

٧- اتخاذها عيدًا :

روى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعًا : «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ، ولا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

وروى أبو يعلى بسنده عن عليّ بن الحسين ، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيها ويدعو ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثًا سمعته عن أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : «لا تتخذوا قبري عيدًا ، ولا بيوتكم قبورًا ، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم» . ومعنى اتخاذ القبر عيدًا قصده للاجتماع فيه والقعود عنده ونحو ذلك .

وقبر رسول الله ﷺ هو أفضل قبر على وجه الأرض ، فإذا نهى عن اتخاذه عيدًا فقبر غيره أولى بالنهي ، كائنًا من كان . ويكفي أن يُصَلِّى ويُسَلِّم على الرسول ﷺ فتصله صلاته وسلامه حيثما كان .

● الحكمة في هذا التحذير :

والحكمة في نهي الإسلام عن تعظيم القبور أنه ذريعة إلى الشرك الأصغر والأكبر كما رأينا في قوم نوح ، وكما هو مشاهد إلى اليوم . فالغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا معبودة ، ولهذا قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . (رواه مالك).

ومما يأسف له كل مسلم غيور على دينه أن ما حذّر منه الرسول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الإسلام . فقد اتخذوا قبور بعض الصالحين أعيادًا ، وشيدوها وزخرفوها ، وبنوا عليها المساجد والقِباب ، وأوقدوا عليها السُرج والقناديل ، ووقفوا لذلك الوقوف ، ونذروا لها النذرور ، وطافوا بها كالكعبة ، واستلموها كالحجر الأسود ، وأوسعوا جدرانها

لثمًا وتقبيلاً ، ومنهم من يسجد لها ، ويُعَفِّر الخدود على ترابها ، ويقف خاشعًا مستكينًا ، يستغيث بأصحابها ، يسأله ـ مشافهة ـ قضاء الديون ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وشفاء المرضى ، والنصر على الأعداء ، وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة في رِقاع إلى صاحب القبر ، وهذا من الشرك الصريح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

• التبرك بالأشجار والأحجار ونحوها :

ومن الشرك الذي حاربه النبي ﷺ : التبرك بالأشجار والأحجار والقبور ونحوها . على اعتقاد أن لها سرًّا أو بركة خاصة ، ينالها من يتمسح بها ، أو طاف حولها ، أو زارها ، أو جلس إليها . وهذا مما يُفضي بمن فعله إذا تمادى فيه إلى الشرك الأكبر . فإن أصنام العرب الكبرى كانت إما صخرة كاللات ، أو شجرة كالعزى ، أو حجرًا كمناة ، ولهذا حذَّر النبي ﷺ منه وزجر عنه .

وقد روى الترمذي عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ـ ونحن حديثو عهد بكفر ـ وللمشركين سِدْرَة ـ شجرة نبق ـ يعكفون عندها ، وينوطون

بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط . . فمررنا بسِدْرَة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٨) . لتركبن سنن من كان قبلكم » . (رواه الترمذي وصححه).

فالظاهر أنهم كانوا يريدون مجرد التبرك بهذه الشجرة وتعليق أسلحتهم عليها ، فزجرهم النبي ﷺ هذا الزجر الشديد ؛ سدًّا للذريعة إلى الشرك .

ومما يؤسف له أن كثيرًا من المسلمين قد انحرفوا عن هَدي رسول الله ﷺ واتبعوا سنن من كان قبلهم ، فاتخذوا لهم « أنصابًا » يتبركون بها ، يتمسحون بها ، ويدعون عندها ، ويتوسلون بها ، ويتعلقون بها تعلقًا يشبه تعلق المشركين بالأصنام . وكم في بلاد المسلمين من « ذواتِ أنواط » مما زجر عنه نبيهم ﷺ .

والواجب على المسلمين وعلى حكامهم وعلمائهم خاصة إزالة هذا المنكر وهدم هذه الأنصاب ومحوها من شجرة أو عمود ، أو قبر أو خشبة ، أو عين أو حجر أو غيرها ؛

اقتداءً بما فعله النبي ﷺ حين بعث عليًّا وأمره بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض . كما في « صحيح مسلم » عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي عليّ رضي الله عنه : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ .. ألا أدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفًا إلا سويته .

قال الإمام أبو بكر الطرطوسي المالكي : ولما بلغ عمر رضي الله عنه أن الناس يأتون الشجرة التي بايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ فيصلون عندها ، أرسل ، فقطعها ؛ خوفًا على المسلمين من الفتنة .

فإذا كان هذا فعل عمر بالشجرة التي ذكرها الله في القرآن ، وبايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ ، فماذا يكون حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي عظمت الفتنة بها ، واشتدت البلية بها ؟!

وقال الإمام الطرطوسي : انظروا ـ رحمكم الله ـ أينما وجدتم سِدْرَة أو شجرة يقصدها الناس ويُعظمونها ، ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِها ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهي « ذات أنواط » فاقطعوها .

وعن المبرر بن سويد قال : صليت مع عمر بن الخطاب ﷺ في طريق مكة صلاة الصبح ، فقرأ فيها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [1] ، و﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ [2] ثم رأى الناس يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه . فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبِيَعًا ، فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصلِّ ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .

وهذا من فقه عمر ﷺ وحرصه على عقيدة العامة ، وخشيته عليهم من الغلو والانحراف .

● الألفاظ الموهمة للشرك :

ومما حذَّر منه النبي ﷺ : الألفاظ التي فيها إيهام للشرك وإساءة للأدب مع الله ، وذلك حماية منه لحمى التوحيد .

(أ) من ذلك قول القائل : ما شاء الله وشاء فلان ، أو باسم الله واسم الأمير ، أو اسم الشعب ، وقد مرَّ بنا إنكار النبي ﷺ

---

(١) أي سورة الفيل .

(٢) أي سورة قريش .

لمن قال له ذلك ، روى حذيفة عنه ﷺ قال :« لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » . (رواه أبو داود بسند صحيح).

(ب) ومن ذلك قولهم : لولا الله وفلان ، أو اعتمدت على الله وعليك ، وما شابه هذه الألفاظ ، قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾(البقرة:٢٢) : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل ، على صفاة سوداء ، وفي ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي . وتقول : لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الرجل وفلان . . هذا كله به شرك . (رواه ابن أبي حاتم).

(ج) ومن ذلك التسمي بأسماء الله تعالى ، أو بما لا ينبغي إليه لله .

روى أبو داود عن أبي شريح ، أنه كان يُكَنَّى أبا الحكم ، فقال له النبي ﷺ : « إن الله هو الحكم وإليه الحكم ». ثم كَنَّى بولده ، شريح أكبر أولاده .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن أخنع اسم[1] عند الله رجل تسمى : ملك الأملاك . . لا مالك إلا الله » . قال سفيان بن عيينة مثل : شاهنشاه عند العجم ؛ لأن معناها ملك الملوك .

وفي رواية : « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه ».

(د) ومن ذلك أن يسمى الإنسان باسم معبد لغير الله ، كعبد الكعبة أو عبد النبي ، أو عبد الحسين ، أو عبد المسيح ، ونحو ذلك ، فقد نقل ابن حزم الإجماع على تحريم التسمية بذلك ، باستثناء عبد المطلب .

(هـ) ومن ذلك : سب الدهر عند نزول الشدائد والنكبات بالناس ؛ فإن سب الدهر حينئذ كان نوعًا من شكوى الله تعالى أو السخط عليه ؛ فإنه هو الذي يُدبِّر الأمر ، ويُقَلِّب الليل والنهار ، وهو الفاعل لكل ما في الكون من أحداث .

ولهذا جاء في الحديث الصحيح : « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، أقَلِّب الليل والنهار » .

* * *

---

(١) أخنع اسم : أوضع اسم وأذله .